

Politics and Orientalism: Arminius Vambéry and the Eastern Question

Zakaria Alrefai

Abstract

The study aims to examine the connection between Orientalism and politics. It attempts to understand and analyze aspects of the tools and mechanisms of Orientalism. Moreover, the study sheds light on the stereotypical image of the Ottoman Empire in the circles of Orientalism. In order to achieve this aim, the paper explores the life and activities of the Hungarian, Arminius Vambéry, that embody the relationship between politics and Orientalism.

The main challenge for the study was the fact that Arminius Vambéry's political activities in his published works (*The Life and Adventures of Arminius Vambéry*, 1883, and *The Story of My Struggles: The Memoirs of Arminius Vambéry*, 1905) have been neglected. His career as a secret agent or a mediator remained controversial until The British Foreign Office released his secret correspondence in 2005. Furthermore, the International Conference held in 2013 revealed many of his activities and opinions. Seeing as these aspects about Vambéry remain unknown in general and to the Islamic and Arab world in particular, this paper seeks to fill this gap in the literature.

The study applies a historical approach to understand Vambéry's background, especially his Jewish roots and the Hungarian culture, which heavily influenced him as a young man and that continued to influence the stances he took on foreign policy later on in his life.

The results of the study clarify that Vambéry was an exceptional and unusual personality, and he succeeded in adopting various identities. He had to convert to Islam and declared himself Christian for the sake of being employed in the university. He also became actively involved as a political agent to serve British interests. From the mid 1870s he was officially employed by the British Foreign Office. He consistently supported the idea of the greatness of the British Empire and considered the idea of Pan-Islam as a threat against the European Civilization. He advised not to lose precaution particularly in places like India and Egypt. Additionally, Vambéry never abandoned his Jewish roots and believed himself to be acting on behalf of Hungarian Jews as well as the Jews of the world.

Nevertheless, the researcher recommends that further investigation is to be done on Vambéry's works, especially on his views regarding the Ottoman Tanzimat or the period of reform in the Ottoman Empire. Moreover, Vambéry's heritage ought to be translated in order to better understand the relationship between Orientalism and politics during the nineteenth century.

Keywords: Vambéry, the Islamic World, the Eastern Question, The British Empire, Zionism.

ISSN : 1026-9576

DOI : 10.34120/0117-039-153-004

الاستشراق والسياسة: أرمنيوس فامبيري والمسألة الشرقية

نكريا صادق الرفاعي

أستاذ، قسم التاريخ، كلية التربية،
جامعة المنصورة، جمهورية مصر العربية

المخلص

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم نموذج عن التداخل الواضح بين الاستشراق والسياسة، وفهم وتحليل جوانب من أدوات عمل الاستشراق وآلياته، إضافة إلى إبراز الصورة النمطية للدولة العثمانية في دوائر الاستشراق.

ولعل الصعوبة الرئيسة للدراسة هي تجاهل النشاط السياسي لفامبيري في أعماله المنشورة (حياة ومغامرات أرمنيوس فامبيري، 1883، وقصة كفاحي، ذكريات أرمنيوس فامبيري 1905)، وقد ظل عمله عميلاً سريعاً أو وسيطاً موضعاً للجدل حتى أفرجت الخارجية البريطانية عن مراسلاته السرية المحفوظة في عام 2005، وكشف المؤتمر الدولي الذي عقد في عام 2013 الكثير عن نشاطه وآرائه.

وقد اعتمدت الدراسة على المدخل التاريخي لفهم خلفية فامبيري، خاصة الجذور اليهودية والثقافة المجرية التي تركت أثراً قوياً عليه شاباً، واستمر أثرها عليه لاحقاً في مواقفه من السياسة الخارجية.

وأوضحت الدراسة أن شخصية فامبيري كانت استثنائية وغير عادية، وقد نجح في التكيف مع هويات مختلفة؛ فاضطر لاعتناق الإسلام كما أعلن أنه مسيحي ليعمل بالجامعة، وقد انخرط كوكيل سياسي لخدمة المصالح البريطانية، وصار منذ منتصف عام 1870 موظفاً رسمياً بالخارجية البريطانية، وكان على الدوام داعماً لفكرة عظمة الإمبراطورية البريطانية، وأن فكرة الجامعة الإسلامية تمثل تهديداً للحضارة الأوروبية، ونصح بعدم التفريط في الاحتياطات ولاسيما الهند ومصر، كما لم يتخل فامبيري أبداً عن جذوره اليهودية، وأعتقد أنه يتصرف نيابة عن يهود المجر ويهود العالم.

ولا تزال بحاجة إلى إجراء المزيد من الدراسات عن أعمال فامبيري، ولاسيما رؤيته لعصر الإصلاحات أو التنظيمات العثمانية، كما أننا في حاجة إلى ترجمة تراث فامبيري لفهم أفضل لعلاقة الاستشراق بالسياسة خلال القرن التاسع عشر.

الكلمات المفتاحية: فامبيري، العالم الإسلامي، المسألة الشرقية، الإمبراطورية البريطانية، الصهيونية.

مقدمة

يعد أرمنيوس فامبيري (1832-1913)⁽¹⁾ أحد كبار المستشرقين الذين خاضوا غمار السياسة الدولية في عصره، وقد مهد لنفسه طريقاً بين أروقة الاستشراق بحكم إتقانه الغريب والفذ للعديد من اللغات الشرقية والغربية⁽²⁾، ثم ذاع صيته بصورة كبيرة عقب نشره في لندن لأحداث رحلته الشهيرة إلى آسيا الوسطى في عام 1864 متكرراً في شخصية درويش فقير، ولاقى الكتاب رواجاً منقطع النظير؛ فطبع مراراً وترجم إلى لغات عديدة.

وتسعى هذه الدراسة إلى رصد الجانب السياسي في حياة فامبيري المديدة والحافلة؛ فعلى الرغم من قامته العلمية السامقة في عالم الاستشراق باعتباره رائداً لحقل الدراسات الشرقية في جامعة بودابست، فضلاً عن نشاطه الكبير، مراسلاً ثم عضواً في أكاديمية العلوم المجرية، ومؤسساً ورئيساً للجمعية الجغرافية، فإنه لم ينكفئ على حياته الأكاديمية، بل انغمس في كواليس السياسة ودروبها المعلنه والخفية وصار عميلاً سياسياً لكل من بريطانيا وتركيا خلال فترة مهمة من تطورات المسألة الشرقية.

وقد قسمت الدراسة إلى ثلاثة محاور، عني أولها باستعراض المحطات الرئيسة في حياة فامبيري للوقوف على سنوات التكوين الأولى التي شكلت وعي فامبيري ووجدانه، وفهم الدوافع التي حدت به إلى الولوع في عالم السياسة والتصاقه وصداقته الفريدة بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني (1876-1909)، وتعلق المحور الثاني برصد مساهمات فامبيري السياسية، ولاسيما علاقته الوثيقة بكل من الحكومتين التركية والبريطانية في آن واحد، وعالج المحور الثالث علاقة فامبيري بالحركة الصهيونية، ونجاحه في التوسط لدى السلطان العثماني للقاء زعيم الحركة الصهيونية ثيودور هرتزل ومناقشة الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

وقد اعتمدت الدراسة على كتابات فامبيري، وفي مقدمتها قصة حياته التي صاغها بنفسه مرتين، الأولى بعنوان "حياة ومغامرات أرمنيوس فامبيري"، وصدرت في عام 1883، والثانية "قصة كفاحي"، وظهرت في عام 1904⁽³⁾، والمتاح أيضاً من مراسلاته

مع الخارجية البريطانية التي تم الإفراج عن جانب منها في عام 2005، فضلاً عن الدراسات التي تعرضت لجانب أو آخر من تجربته الثرية، وكانت موضع فائدة للدراسة .

سنوات التكوين

ولد فامبيري في عام 1832 في إحدى القرى القريبة من برتسلافا (في سلوفاكيا الحالية) لأبوين فقيرين من اليهود، واسمه الأصلي "حاييم هرمان ومبرجر" Hermann Wamberger Chaim، وينتسب أبوه إلى مدينة برسبرج Press burg بينما كانت أمه من مورافيا، وصار اسم العائلة Bamberger، واتخذ فامبيري الاسم المجري فامبيري أرمين للدلالة على أنه بروتستانتي المذهب، وما لبث أن توفي والده بسبب تفشي وباء الكوليرا ولم يتجاوز عمره بعد بضعة شهور، ولم تختلف السنوات الأولى لفامبيري عن أقرانه من الأسر اليهودية في المجر؛ فتنقل بين مدارس مختلفة تارة كاثوليكية وأخرى بروتستانتية، وكان ملماً - بطبيعة الحال - بقدر من الدراسات التلمودية بحكم أصوله اليهودية⁽⁴⁾، كما كان والده - على حد قوله - نموذجاً للدارسين الجادين للتلمود، ولعل التنوع الديني الذي صاحب فامبيري منذ نعومة أظفاره قد ترك أثراً ممتداً - بلا ريب - في موقفه لاحقاً من قضية الدين؛ إذ قدر له الثقل بكل سهولة بين ديانات عديدة على مدار حياته⁽⁵⁾.

وعلى الرغم من الزواج الثاني لأمه؛ فقد حال الفقر الشديد دون إكمال فامبيري لتعليمه النظامي، واضطر للخروج إلى العمل في سن مبكرة لكسب قوته متنقلاً في أعمال متنوعة في مدينة بودابست، وقد فاقم من معاناته العرج الملحوظ الذي ألم بساقه اليسرى منذ الثالثة من عمره⁽⁶⁾، إلا أن الظروف السابقة لم تفت في عضده، وإصراره على مواصلة تعليمه اعتماداً على نفسه خاصة في مجال اللغات التي أظهر فيها نبوغاً مبكراً، كما أشار فامبيري إلى تأثره في شبابه بكتاب ألف ليلة وليلة، وقد انتابه شعور غامض - آنذاك - على حد قوله بأنه "نصف آسيوي"⁽⁷⁾.

وكانت من بين الأحداث المهمة التي أدركها فامبيري في شبابه ثورة المجر في 15 مارس عام 1848، وإعلان وجود حكومة مستقلة عن إمبراطورية النمسا بحكم تنامي الفكر القومي وشيوعه، وصاحب ذلك موجة من الحماسة والتفاؤل بين أبناء الطبقة

الوسطى في المدن الراغبة في إزاحة حكم الصفوة الريفية القديمة، وإقامة نظام سياسي ليبرالي، على أن التدخل الروسي بطلب من النمسا وضع حداً لتلك الآمال وتم قمع الثورة في عام 1849⁽⁸⁾، وواكب ذلك انفجار مشاعر العداء والكراهية لليهود، ولاشك أن تلك الأحداث تركت أثراً باقياً في ذاكرة فامبيري⁽⁹⁾. ولعلها كانت وراء رفضه وعدائه الشديدين طوال حياته للسياسة الروسية التي وصفها بأنها رمز للاستبداد الشرقي⁽¹⁰⁾.

الارتحال إلى تركيا والبحث عن هوية

في عام 1857 اتجه فامبيري إلى تركيا يتنازع الخوف والرجاء معاً⁽¹¹⁾، وظل مقيماً فيها لخمس سنوات متصلة⁽¹²⁾، واضطر للإقامة مع اللاجئين المجرين الذين تدفقوا بالآلاف صوب الدولة العثمانية منذ عام 1849، وليس معروفاً على وجه اليقين الأسباب التي دفعته إلى ذلك؛ فلم تكن مجرد رغبته الجامحة في مواصلة تعلم اللغات الشرقية على الرغم من أهميتها هي التي قادته إلى ذلك الطريق فحسب؛ إذ يجب ألا نغفل في هذا المقام الفكرة الشائعة آنذاك من أن المجرين قد انحدروا من أصول آسيوية قد تكون تركية أو طورانية⁽¹³⁾، وربما تأثر فامبيري أيضاً بتوجهات "كورسي كوزما Korosi Csoma"؛ الذي نذر حياته للبحث عن الأصول العرقية للمجرين، وسعى للترحال إلى آسيا الوسطى لتعرف موطنهم الأصلي، وعلى الرغم من فشله في هذا الصدد فإنه فتح الباب مشرعاً أمام الدراسات الشرقية لاحقاً⁽¹⁴⁾.

على صعيد آخر أشار البعض إلى أن الدراسات الشرقية بدورها كانت جزءاً من نشاط اليهود في المجر في إطار البحث عن هويتهم المفقدة⁽¹⁵⁾، ويبدو أن فامبيري قد وجد ضالته في مجال الدراسات التركية لإيجاد حل لمعضلة الجذور العرقية للمجرين و اليهود معاً من خلال دراسة جماعات شرقية مثل الخزر، وسعيه الحثيث لإيجاد صلة تاريخية مشتركة بين الطرفين، وبدا فامبيري على قناعة في كتابه "القاموس المجري - التركي" الصادر في عام 1869 من أن اللغة المجرية ذات أصول تركية، كما لاحظت خلفيته وهويته اليهودية بوضوح في كتابه "ذكريات عن التتار" الصادر في عام 1880، حينما أشار في أحد فصوله إلى أن اليهود جماعات آسيوية في العرق واللغة والعادات، وفي

فقرة أخرى انتهى إلى نتيجة مؤداها " أن اليهودية ذات أصول آسيوية تماماً، مثل المجريين " وكشفت الملحوظة السابقة عن أن الرجل كان يناضل - في المقام الأول - لإثبات أن اليهود جزء من التكوين التاريخي القومي للمجر، ووفقاً لتلك الرؤية فليس هناك ما يحول دون اندماجهم بالمجتمع المجري مجدداً⁽¹⁶⁾ .

ويمكن القول إن حياة فامبيري قد جسدت في جانب منها قيم العصر الفكتوري وتقاليده، وفي مقدمتها الاعتماد على الذات وإعلاء روح المغامرة⁽¹⁷⁾؛ فأشار مراراً في مذكراته إلى الرومانسية الثورية التي جسدها اللورد بايرون (1788 - 1824)، وقد عبر فامبيري عن تقديره وإعجابه الشديدين لبعض الرحالة السابقين، مثل ريتشارد بيرتون (1821-1890) خاصة بترجمته لكتاب ألف ليلة وليلة، ووليم جيفورد بلجريف (1826-1888)⁽¹⁸⁾ .

كما أن العقبات التي صادفها منذ نشأته الأولى قد صقلت من شخصيته فأصبح قادراً على التكيف والمرونة حتى إنه صار مع الوقت قادراً - على حد قوله - على " التحكم في مشاعره ليس في حال يقظته فقط بل حتى في أحلامه " ⁽¹⁹⁾ وسرعان ما ترك فامبيري الحي الأوروبي في إستانبول وترك العمل في المقاهي وانخرط في المجتمع التركي وتخلّى عن الزي الأوروبي باعتباره مسلماً، وصار اسمه " رشيد أفندي " ⁽²⁰⁾، ومن خلال عمله بالتدريس وبراعته اللغوية التي كانت مثار إعجاب المحيطين به⁽²¹⁾ نجح فامبيري في توطيد صلاته بالصفوة التركية، من ساسة وكتاب وشعراء صاروا لاحقاً قادة بارزين في حركة تركيا الفتاة، وكان من أشهرهم مدحت باشا (1822 - 1884)، الذي عرف بعد ذلك " بأبي الدستور "، وقد ساعد فامبيري في الالتحاق بالمدرسة العثمانية لدراسة الشريعة الإسلامية واللغة العربية⁽²²⁾ .

كما نوه فامبيري بصحبته -آنذاك - للملا " أحمد أفندي " من بغداد، الذي ساعده كثيراً على إجادة العربية والفارسية والإحاطة بكتب التراث الإسلامي، ولعب دوراً رئيساً في تحوله من أوروبي متجول إلى نموذج للرجل الآسيوي في الفكر والعادات والتقاليد⁽²³⁾، كما ذكر أنه في عام 1860 يكاد يكون الأوروبي الوحيد في إستانبول الذي احتفظ بعلاقات

جيدة مع مختلف طبقات المجتمع التركي ، وأنه خبر المجتمع التركي من الداخل كما لم يعرفه أحد من قبل ، وكان موضع ترحيب دائم من كبار رجال الدولة (24) .

تركيا وسياسات التحديث

لفت فامبيري الانتباه إلى أن الضغوط الغربية المتزايدة على تركيا لفرض نهج الحداثة الغربية غير مجدية ، معتبراً أنه لا توجد دلائل على وجود إصلاحات حقيقية ، وأضاف أن الجميع هنا لا يرحبون بالليبرالية الغربية ، وكثيراً ما عبر أفراد الصفوة التركية عن قناعتهم بأن الضغوط الغربية تستهدف تدمير ثقافتهم الإسلامية ، وأنه لو أُتيح لهم الوقت لتمّ الإصلاح المنشود بطريقة هادئة وبطيئة ولكنها أكثر فاعلية ، وأضاف فامبيري أن الحكومة التي يسير فيها العمل بنظام البقشيش لن يجدي فيها أي ترميم هنا أو هناك (25) .

وعلى الرغم من إقامة فامبيري الطويلة في الشرق وثنائه في مواضع متفرقة على الثقافتين التركية والفارسية ، فإنه لم يتخل عن قناعته بالمركزية الأوروبية وتفوق الحضارة الغربية ، وكثيراً ما ردد الحديث عما أسماه " الاستبداد الآسيوي " ، وأنه لا توجد ثمة حرية ولا ثقافة في الشرق مقارنة بالغرب (26) ، فالشرق في تقديره لا يعرف ولا يتفهم الحاجة إلى المعرفة ولا يؤمن بوجودها (27) ، كما أن الشرقي في نظر فامبيري يولد ويموت بقناع يخفي وراءه شخصيته ، وهو يضمّر بداخله أكثر بكثير مما يبدو عليه في ظاهر الأحوال (28) .

وأيد فامبيري ما روج له نفر من المستشرقين وبعض الساسة في العصر الفيكتوري (29) ، الزاعمين أن الإسلام قد وقف حجر عثرة في تقبل قيم الحداثة ، مقارناً في هذا الصدد بين نجاح سياسات التحديث في اليابان وفشلها في العالم الإسلامي بقوله : إن " عقيدة الشنتو لم تكن يوماً ضد الحضارة الغربية مثل الإسلام الذي وضع قيوداً في التعامل مع غير المسلمين سياسياً وإيدولوجياً ، وإن الحكومات المستبدة في الإسلام لن ترحب بالحداثة مثلما فعلت المؤسسات في اليابان " (30) ، والواقع أن الافتئات المتزايد على الإسلام ووصفه باستمرار بالعجز والاستبداد كان طقساً شائعاً بين كثير من المستشرقين ، ويعاد إنتاجه من آن إلى آخر .

وعقب إقامته لعدة سنوات في تركيا عينت الأكاديمية المجرية فامبيري مراسلاً

ومترجماً لها عن اللغة التركية وتلقى تمويلاً لتنفيذ رحلته إلى آسيا الوسطى⁽³¹⁾، وتجب الإشارة في هذا الصدد إلى أن الجمعيات الجغرافية قد استخدمت غطاء لخدمة العمل السياسي من خلال دعمها للمشروعات العلمية والاستطلاعية بهدف جمع مادة علمية متنوعة تضمنت خرائط وإحصاءات، فضلاً عن الجوانب السياسية والاجتماعية والعرقية للأقاليم الراغبة في السيطرة عليها تحت شعار خدمة الإمبراطورية؛ ومن ثم فإن تلك الرحلات لم تكن مجرد مغامرات كشفية وعلمية جرى تمويلها فحسب، بل انطوت على مشاركة فعالة فيما عرف "بلعبة الأمم" خلال الصراع الاستعماري المحموم آنذاك بين القوى الكبرى⁽³²⁾.

الدويش المتكّد

استعد فامبيري لرحلته جيداً، فتوجه أولاً إلى إيران لمراقبة قوافل الحجيج في ذهابها وإيابها، وقد توثقت علاقته بالسفير البريطاني في طهران "تشارلز أليسون" Charles Alison الذي استضاف فامبيري، و طلب منه التقصي والبحث عن ثلاثة من الضباط المفقودين في خانات آسيا، وبعد تطوافه بالعديد من المدن الإيرانية، ارتحل مع إحدى القوافل العائدة من الحج متكرراً في شخصية درويش حتى لا يثير الشكوك من حوله، متجهاً إلى إمارات آسيا الوسطى مثل خياف و بخارى و سمرقند و هرات، ونجح على الرغم مما واجهه من صعوبات - بل كاد يفقد حياته في كثير من الأحيان - في جمع مادة ثرية ومتنوعة، وقفل عائداً من رحلته التي استغرقت قرابة ستة الشهور⁽³³⁾.

وبطبيعة الحال كان منطقياً أن تحظى رحلة فامبيري باهتمام متزايد من قبل دوائر السلطة البريطانية نظراً للأهمية الجيوبولتكية⁽³⁴⁾ المتزايدة لمنطقة آسيا الوسطى⁽³⁵⁾ وخشيتها من غريمتها روسيا المتطلعة للسيطرة عليها، ثم القفز منها إلى الهند البريطانية، حتى إن البعض وصف الصراع بين القوتين آنذاك بالحرب الباردة⁽³⁶⁾، وقد ذهب فامبيري إلى لندن بدعوة من الجمعية الجغرافية؛ حيث حظي باستقبال حافل، فاستقبلته الملكة فيكتوريا، كما دعي إلى قلعة وندسور وتعرف أمير ويلز (الملك إدوارد السابع فيما بعد)⁽³⁷⁾، ونشر يوميات رحلته التي راجت بين أوساط الرأي العام، وخلال الفترة من عام 1864 إلى

عام 1866 بلغت شهرة فامبيري الآفاق⁽³⁸⁾، ولا سيما أن السفير البريطاني في طهران قد أمده بخطابات توصية عقب عودته من رحلته فتحت أمامه الأبواب للقاء كبار الساسة في بريطانيا، مثل رئيس الوزراء بالمرستون واللورد سترانفورد، كما ظل كتابه المرجع الرئيس للمختصين بالشؤون الروسية إلى عام 1890⁽³⁹⁾.

وقد أشار البعض إلى أن السفير الروسي بالقسطنطينية قد حاول إقناع فامبيري بالتعاون معه والعمل لصالح سانت بطرسبورج، لكنه رفض ربما لشعوره الكامن بالعداء لروسيا منذ تدخلها في قمع الثورة المجرية⁽⁴⁰⁾، وقد أفاض في وصف مشاعر الرعب التي عاشها من جراء إعدام قادة الثورة بطريقة وحشية على نحو ما سبقت الإشارة إليه من قبل⁽⁴¹⁾.

وفي عام 1865 عاد فامبيري إلى المجر، وكان محبطاً من الفتور الذي استقبل به مقارنة بالحفاوة البالغة التي نالها في لندن من قبل، وكان هدفه الرئيس الحصول على وظيفة في جامعة بودابست، ولم يكن ذلك أمراً يسيراً؛ إذ كانت وظائف الجامعة حكراً على الكاثوليك وحدهم، في حين كان فامبيري بروتستانياً، إضافة إلى أصوله اليهودية المعروفة، وقوبل طلبه بالتعنت والرفض، إلا أنه استطاع في النهاية انتزاع الوظيفة على مضض بعد توصية خاصة من قبل فرانسيس جوزيف إمبراطور النمسا (1830-1916)⁽⁴²⁾.

فامبيري وعالم السياسة

يمكن القول إن انغماس فامبيري في قضايا العالم الإسلامي وقدراته على بناء شبكة علاقات جيدة مع أطراف عديدة في إمارات آسيا الوسطى وخاناتها وفي إستانبول، هو الذي منحه المكانة والثقة لدى الحكومة البريطانية، ولدى المثقفين والصفوة الأكاديمية في المجر⁽⁴³⁾، وصار ينظر إليه باعتباره خبيراً في شؤون آسيا الوسطى؛ حيث بدا قادراً على رؤية الحقائق واستقاء المعلومات بصورة سريعة ومتميزة، ربما فاقت البيروقراطية الحكومية البطيئة، حتى إن بعض مقالات فامبيري في الصحافة البريطانية صارت مثار اهتمام بعض أعضاء مجلس العموم في كثير من الأحيان، ولعل عمله مراسلاً صحفياً لبعض الصحف الألمانية قد فتح له نافذة واسعة على عالم السياسة⁽⁴⁴⁾، كما أن التحاقه مترجماً

لوزير الخارجية محمد فؤاد باشا مهد له بناء علاقات مع السفراء والقناصل المعتمدين في إستانبول⁽⁴⁵⁾، وهكذا استطاع فامبيري الجمع بين هويتي الشرق والغرب معاً، وكان طريفاً ولافتاً للانتباه حرصه على ارتداء الطربوش التركي أينما ذهب طوال حياته⁽⁴⁶⁾.

وبطبيعة الحال صارت لكتابات فامبيري أهمية مضاعفة بعد رغبة روسيا في التوسع منذ عام 1868؛ حيث شرعت في السيطرة على معظم دويلات آسيا الوسطى مثل خيفا وبخارى وسمرقند⁽⁴⁷⁾، وبحلول عام 1890 صارت لصيقة بالحدود الإيرانية، وكتب فامبيري محذراً من عواقب ذلك في بعض مقالاته بجريدة التايمز⁽⁴⁸⁾.

وقد أشار فامبيري إلى البدايات الأولى لصلاته مع الحكومة البريطانية، فأوضح أن بالمرستون (1784 - 1865) طلب منه عن طريق السير رودريك موريشسون Roderick Murchison رئيس الجمعية الجغرافية في لندن، كتابة تقرير عن الوضع السياسي في روسيا وإمارات آسيا الوسطى، وكان ذلك أمراً يسيراً على حد قول فامبيري، إلا أن " بالمرستون أخذ ملاحظاتي على محمل الدعابة، ووصف رؤيتي لروسيا بأنها ضيقة الأفق وأسيرة مقتضيات الوطنية المجرية، وحتى بعد التوسع الروسي التدريجي لم يحرك بالمرستون ساكناً، فقط شجعني على المضي قدماً في الكتابة لجريدة التايمز وحث الرأي العام على المزيد من المشاركة " ⁽⁴⁹⁾.

وقد كتب فامبيري إلى السير هنري رولنسون Henry Rawlinson الذي كان ضابطاً سابقاً في الهند خطاباً في 6 مايو عام 1873، حول السياسة المتبعة في آسيا الوسطى مقترحاً على مكتب الهند إنشاء أكاديمية لتعلم اللغات الآسيوية، ومعرباً عن استعداده للعمل بها تطوعاً، وعندما زار لندن عام 1874 كتب له مرة أخرى، وبدأ أن فامبيري كان راغباً في نيل توصية منه للحكومة البريطانية، ولكن رولنسون أشار إلى أن عدااء فامبيري الشديد تجاه روسيا قد يكون معوقاً في المستقبل⁽⁵⁰⁾.

وليس معروفاً على وجه الدقة بداية عمل فامبيري مع الحكومة البريطانية؛ فرأى البعض أن ذلك قد تم منذ منتصف عام 1870 وكان يدفع إليه بسخاء⁽⁵¹⁾، كما نوه البعض إلى أنه اختير في ظل وزارة دذرائيلي (1881-1804) Disraeli، بحسب رواية هرتزل

(1860 - 1904) عن فامبيري⁽⁵²⁾، بينما ذهب آخرون إلى أنه قد التحق بالعمل رسمياً بالخارجية البريطانية خلال الفترة من عام 1889 إلى عام 1911⁽⁵³⁾، ويبدو ذلك أقرب إلى الصحة؛ حيث احتفظت الخارجية البريطانية بمُلفين لمراسلات فامبيري في الفترة ما بين عام 1889 إلى عام 1909 برقم (800 / 32).

ومن الصعوبة بمكان تغطية النشاط السياسي المتشعب لفامبيري بصورة تفصيلية، فتم استعراض القضايا الرئيسية التي شكلت جوهر عمله، خاصة سعيه الدؤوب إلى استعادة أواصر الصداقة بين بريطانيا والدولة العثمانية على إثر الاحتلال البريطاني لمصر في عام 1882، وكان التعاون بين الدولتين قائماً منذ حروب نابليون، والتصدي معاً لمحمد علي في مصر والشام وأيضاً، خلال حرب القرم، كما ساندت بريطانيا السلطان في حربه مع روسيا عام 1877/1878⁽⁵⁴⁾.

ومن جهة أخرى بدا فامبيري راغباً في المبالغة في إبراز دوره وتعظيم قدراته وتسويقها، فأشار " إلى أن مبعوثاً خاصاً يجيد التركية كأهلها وعلى وعي كامل بالعادات والتقاليد والمزاج الشرقي (ادعى فامبيري أنه أكثر إجادة للتركية القديمة من السلطان نفسه)، سيكون أكثر قدرة على التعبير عن نفسه، بمصداقية أكثر من الدبلوماسية التقليدية، المفتقرة إلى الأدوات المناسبة لإيصال ما تريد، ووصف فامبيري السلطان عبد الحميد بأنه " بسمارك الشرق " (55).

وقد سلطت الرسائل التي تبادلها فامبيري مع فليب كوريه Philip Currie بالخارجية البريطانية وما سجله فامبيري في سيرته الذاتية، الضوء على القضايا التي كانت موضع نقاش في المناسبات المختلفة التي التقى فيها فامبيري السلطان عبد الحميد الثاني، وكان حريصاً دائماً على الحديث عن نفسه باعتباره وسيطاً بين صديقين، ومعنياً بتحقيق السلام بين بريطانيا والدولة العثمانية بالدرجة الأولى، ناهياً عن نفسه العمل لحساب طرف دون آخر، وقد ناقض فامبيري نفسه؛ إذ كان إصراره الشديد على إبعاد شبهة العمل السري عن نفسه، دليلاً على انغماسه فيه حتى النهاية.

وفي سيرته الذاتية أشار فامبيري إلى أنه " لا يحبذ القيام بدور الوسيط في العلاقات

الدبلوماسية وودّ لو أنه قد أخفى أحاديثه مع السلطان العثماني، لكنه وقف بكل تأييد خلف إمبراطورية النمسا والمجر وبريطانيا ودائماً ضد روسيا بأكثر من السلطان نفسه، حتى إنه توسل للسلطان في أن يقبل اعتذاره عن حفل عشاء كان مدعواً فيه السفير الروسي نيلدوف " (56)، ومن ثم ظل ولاء فامبيري حتى الرمق الأخير للسياسة البريطانية (57).

و أوضح فامبيري أنه على الرغم من الأجواء العدائية التي أحاطت بمهمته، فإن علاقته الوثيقة بالسلطان عبد الحميد الذي كان محل ثقته قد ضمنت له استقبلاً جيداً في قصر يلدز على نحو دائم (58)، وقد أشار البعض إلى أن السلطان العثماني بدوره كان على ما يبدو بحاجة إلى فامبيري في الوقت نفسه، وربما منحه في الأغلب مالا في بعض المناسبات إدراكاً منه لمكانته وصلاته النافذة بالخارجية البريطانية منذ وقت طويل، فضلاً عن شهرته كأحد الدراسين المبرزين، وبعبارة موجزة فقد اعتبره السلطان في كثير من الأحيان مبعوثاً خاصاً له (59)، ومنذ عام 1888 بعد افتتاح طريق القطار من بودابست إلى إستانبول بدأت زيارات فامبيري المتوالية والمدفوعة الأجر إلى إستانبول (60) وذكر فامبيري أن ذاكرته الاستثنائية قد منحتة القدرة على كتابة أحاديثه مع السلطان، التي كانت باللغة التركية، ونقل كل ما قيل بصورة حرفية للخارجية البريطانية (61).

وفي حديثه الخاص مع السلطان في 4 يونيو 1889 طالبه فامبيري أن يكون شريكاً في استعادة العلاقات البريطانية التركية الجيدة إلى سابق عهدها لفرض التوازن السياسي بين المصالح البريطانية والروسية في الإمبراطورية العثمانية، ومن جانبه حث السلطان فامبيري على تقديم المساعدة لتحسين صورته المتدهورة في الصحافة الأوروبية، وشكا من أن سفراءه بالخارج لا يفعلون شيئاً حيال وصفه " بالاستبداد والقسوة "؛ وأجاب فامبيري أن السلطان يتقرب من روسيا ولا يتبنى سياسة إصلاحية واضحة، ومن ثم فإن مساعيه لا طائل منها، واحتج السلطان بأنه مضطر للتعامل مع روسيا التي هي بمثابة الخنجر المحيط بخاصرته دون وجود مساعدة من الخارج، كما أن الإصلاح المطلوب من القوى الكبرى لا يعني عملياً سوى انهيار الدولة في نهاية المطاف (62).

و أضاف فامبيري أن السلطان كان حريصاً في مختلف لقاءاته على نفي عدائه

لبريطانيا، بل أفاض كثيراً في حسن ظنه بالسياسة البريطانية، هو وأسلافه من قبل على الرغم من تخليها الآن عنه، ورفضها الموافقة على منحه قرضاً مالياً ضئيلاً من وجهة نظره⁽⁶³⁾، كما احتج بشدة على الوجود البريطاني في مصر، مشيراً إلى أن الدوافع البريطانية في هذا الصدد قد بدت جميعها غير مقنعة، وأن ما أقدمت عليه بريطانيا قد أسهم في نهاية الأمر في تقويض دعائم سلطته في العالم الإسلامي⁽⁶⁴⁾.

وفي رسالة أخرى ألح فامبيري إلى أن السلطان يريد التوصل إلى اتفاق مع الحكومة البريطانية إزاء المسألة المصرية، مضيفاً أن ذلك ربما اقتضى منه العودة مجدداً إلى إستانبول للمساعدة في تلك القضية، وأضاف فامبيري لكوريه أن السير وليم وايت William White السفير البريطاني في إستانبول (1886 - 1891) لن يكون مفيداً في هذا النوع من الدبلوماسية التي تتطلب مهارة خاصة لا تتوافر في الدبلوماسية الرسمية⁽⁶⁵⁾، ومن جهته فإن رئيس الوزراء اللورد سالزبوري Salisbury (1903 - 1830) لم يكن راغباً في إعادة الحديث مع الأتراك بشأن القضية المصرية، منذ فشل بعثة درمند ولف Drummond Wolff في إستانبول بسبب الضغوط الروسية والفرنسية المتزايدة⁽⁶⁶⁾.

ومن الأهمية بمكان الإشارة في هذا الصدد إلى ما أعلنه فامبيري في عام 1911 لبعض الصحف عن تلقيه مكافأة مالية ضخمة، قدرها خمسمائة جنيه خلال الفترة الثانية من وزارة جلادستون (1880 - 1885)، نظير مهمة كلف القيام بها خلال الاحتلال البريطاني لمصر لكنه لم يفصح عن مضمونها⁽⁶⁷⁾، كما نوه البعض إلى احتمال تدخل فامبيري في المسألة المصرية، خاصة في أثناء الأزمة المالية الحادة في عهد الخديوي إسماعيل (1863 - 1879) عبر صديقه البارون المستشرق والقنصل النمساوي فون كريم Von Kremer (1828 - 1888) الذي كان عضواً في لجنة صندوق الدين⁽⁶⁸⁾.

ومن بين الموضوعات التي تطرقت إليها محادثات فامبيري مع السلطان في 4 يونيو في عام 1889 قضية إعادة تحصين البسفور؛ حيث كان من المقرر إقامة تحصينات بالتعاون مع ألمانيا، ونشر مدافع حديثة من نوع -كروب Krupp، وهو المشروع الذي استشاطت بريطانيا غضباً منه، وكانت وجهة نظر السلطان أن الحكومة البريطانية ليست لديها أسباب وجيهة للشكوى في هذا الشأن⁽⁶⁹⁾.

والواقع أن التقارب الألماني العثماني كان مثار قلق متزايد لبريطانيا (70)، وقد عد فامبيري أن أهم إنجاز للسلطان عبد الحميد هو التقارب مع ألمانيا، وكان القيصر الألماني وليم الثاني William II (1888-1914) قد زار الدولة العثمانية مرتين واستقبل بحفاوة كبيرة، الأولى في عام 1889 والثانية عام 1898، وأبدى فامبيري المنافع عن السياسة البريطانية امتعاضه من ذلك، معتبراً أن سياسة التحالفات التي تبناها السلطان العثماني واعتقاده في حماية قيصر ألمانيا غير صائبة (71).

على صعيد آخر أفصح فامبيري عن رفض السلطان عبد الحميد لاحتمال إعداد روسيا لانقلاب عسكري في إستانبول، وعد ذلك أمراً مستبعداً، كما شكاً بمرارة من الانتقادات المعلنه في الصحافة البريطانية تجاه الدولة العثمانية إزاء تعاملها مع القضية الأرمنية، معتبراً أن الهدف من ذلك هو دعم تأسيس دولة أرمنية مستقلة (72).

وفي 25 يونيو عام 1889 كتب كوريه رداً لفامبيري مشيراً إلى أن تقريره قد قرأ بعناية، كما أرسل له شيكاً بثلاثة آلاف فرنك فرنسي باسم نفقات رحلته، وكان ذلك المبلغ أكبر بكثير مما توقعه فامبيري، وعقب عودته إلى بودابست بأسابيع قليلة تلقى فامبيري رسالة من السلطان عبد الحميد، لبحث إمكانية سفره إلى لندن لبحث المسألة المصرية بطريقة ودية، وكان فامبيري تواقاً - على حد قوله - إلى أن يقوم بمهمة خاصة للسلطان معتبراً أن ذلك سيكون ذا فائدة كبيرة للسياسة الخارجية لبريطانيا، لكن اللورد سالزبوري لم يلتق بالاً ولم يشجع على المضي قدماً في هذا الشأن، كما سبقت الإشارة (73).

وفيما يبدو فإن رئيس الوزراء البريطاني لم يعد قانعاً بجدوى الدور العثماني كمنطقة عازلة Buffer zone في مواجهة الأطماع الروسية في الشرقين الأدنى والأوسط، خاصة في أعقاب الحرب الروسية التركية، معتبراً أن الدولة العثمانية لن يكون بوسعها الصمود في أية مواجهة تالية مع الروس، فكانت قولته المشهورة: "نحن أسماك We are Fish والأسطول البريطاني ليس بوسعه القفز فوق جبل أرارات" (74).

على أية حال فإنه بعد فترة من العلاقات الجيدة بدأت علاقات فامبيري مع الباب العالي في فتور منذ عام 1892، وقد لاحظ فليب كوريه أن فامبيري أرسل العديد من

الخطابات إلى الخارجية البريطانية، لكنها باتت عديمة الجدوى، وربما كان ذلك الفتور في العلاقات بسبب التقارير الغربية المتوالية عن القضية الأرمنية، وكان فامبيري من بين المعارضين للسياسة العثمانية⁽⁷⁵⁾، وعلى الرغم من زيارة فامبيري إلى تركيا فإن الأحداث التي وقعت ما بين 1894 و1896 والتقارب الروسي البريطاني قد أفشلت جهوده في تحسين العلاقات العثمانية البريطانية⁽⁷⁶⁾.

ولم يتوان فامبيري عن الدفاع عن المصالح البريطانية في الهند، وبدأ متناقضاً مع نفسه في هذا الصدد؛ فعلى حين كان رافضاً للضغوط الغربية تجاه سياسة الإصلاحات في الدولة العثمانية خلال عقدي الخمسينيات والستينيات، رحب بحرارة بالسياسة البريطانية في الهند، ووصفها بأنها مهمة حضارية Civilizing Mission، كما رفض في الوقت نفسه استقلال إمارات آسيا الوسطى وخاناتها، أو حتى إعلان تبعيتها للدولة العثمانية⁽⁷⁷⁾.

وحذر فامبيري مراراً من الأطماع الروسية في الهند، ورأى أن ترحيب الهنود بروسيا وسخطهم على بريطانيا ناجم عن نشاط الدعاية الروسية والادعاء بأن الروس مسلمون، وأوضح أن وصول الروس إلى جبال هندكوش بمثابة الهجوم على لندن أو ليفربول، داعياً أوروبا إلى التحالف بحزم لمواجهة روسيا ومنع سياستها التوسعية، حتى لو أدى الأمر إلى حدوث المواجهة العسكرية معها⁽⁷⁸⁾.

ولم يغب عن بال فامبيري الخبير ببواطن الأمور، التوجهات السياسية للسلطان عبد الحميد وما تمثله فكرة الجامعة الإسلامية من خطورة على المصالح البريطانية، وقد أشار فامبيري إلى أن السلطان "قد أدار القضية بمهارة ومتفائل بنتائجها، وبث وكلاءه في الهند وجنوب روسيا وفي آسيا الوسطى وإفريقيا والصين، ووجد تأييداً قوياً من جانب مسلمي الهند⁽⁷⁹⁾، عندئذ بادرفامبيري بكتابة خطاب مفتوح في الصحافة الأوروبية موجهاً إلى زعماء المسلمين، وأرسل إلى الخارجية البريطانية معرباً عن رغبته في السفر إلى الهند للحديث عن مزايا الحكم البريطاني مقارنة بالأطماع الروسية، إلا أن الخطة - بحسب فليب كوريه - ألغيت؛ مما أثار حنق فامبيري وعلق قائلاً: "إنه على مدار خمس وأربعين سنة كرس قلمه لخدمة المصالح البريطانية في آسيا، وأنه يشك إذا كانت الحكومة البريطانية

على وعي بذلك " ، مستشهداً في هذا الصدد بالكاتب تشارلز مارفن Charles Marvin المختص بشؤون آسيا الوسطى ، الذي وجه اللوم للحكومة البريطانية لتجاهلها نصائح فامبيري (80) .

وعلى الرغم مما أداه فامبيري من خدمات ، فقد رأى سالزبوري أن تقارير فامبيري في نهاية الأمر كانت أكثر ضرراً بالسياسة البريطانية من نفعها ، ولم يضيف سالزبوري توضيحاً لموقفه السابق ، والمتعارض مع معظم المراقبين الذين أثنوا على دور فامبيري ، وفي عام 1921 وصف ستيفان جازلي - Stephan Gaselee - المسؤول عن حفظ أوراق فامبيري بالخارجية البريطانية - على نشاط الرجل بأنه " كان مصدراً مفيداً للمعلومات ، وكان هو أذن السلطان ، وصديقاً قوياً لبريطانيا وعدواً لدوداً لروسيا " (81) .

ومن بين المسائل السياسية التي بحثها فامبيري مع الخارجية البريطانية ، الملابس السياسية التي واكبت سعى الحكومة البريطانية إلى احتكار تجارة الدخان في فارس في عام 1890 عن طريق شركة ريجي ، وقد حذر فامبيري من تلك الخطوة ، مضيفاً أن الدخان في الشرق عامة وفي فارس على وجه الخصوص لا يقل أهمية عن الماء والخبز وسيقابل القرار برفض كبير ، كما وقع الاختيار على فامبيري ليكون مترجماً لشاه فارس مظفر الدين شاه (1896-1907) خلال زيارته إلى بودابست ، وقد حاول فامبيري إقناع الشاه بقبول عرض امتياز شركة سكة الحديد البريطانية عن نظيرتها الروسية (82) .

فامبيري والحركة الصهيونية

كانت فكرة توطين اليهود في فلسطين متداولة منذ وقت مبكر ، وطوال القرن التاسع جرت محاولات متفرقة في هذا الصدد ، وأدلى يهود المجر بدلوهم في هذا المجال ، ومن تلك المحاولات تجربة " رابي ناتونيك " Rabbi Natonek ، الذي كرس نشاطه في البداية للعمل الدعائي ، ونشر بالألمانية مجلة " اتحاد إسرائيل " ، ثم قام لاحقاً بعدة رحلات في أوروبا ، وسافر إلى تركيا لإيجاد وسيلة لتوطين اليهود في فلسطين عبر المفاوضات السياسية ، على أنه قبيل انصرام القرن التاسع عشر ، ارتفعت وتيرة العداء تجاه اليهود في ألمانيا والنمسا ، وأدركت قطاعات كبيرة من المثقفين اليهود أن فكرة الاندماج في المجتمعات

الغربية باتت محفوفة بالمخاطر ، وليست حلاً للمسألة اليهودية (83) .

وعند انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في 27 أغسطس من عام 1897 في بازل بسويسرا بحضور نحو مائتي وفد يهودي من كل أرجاء العالم ، تمت الموافقة على إنشاء وطن لليهود في فلسطين وشكلت لجنة تنفيذية برئاسة هرتزل لاتخاذ ما تراه من سياسات باسم المنظمة الصهيونية ، وفي المؤتمر الثاني في عام 1898 وافق الحضور على إنشاء بنك لتمويل نشاط المنظمة خاصة بناء المستوطنات اليهودية (84) .

ونظراً لتبعية فلسطين للدولة العثمانية فقد شرع هرتزل في البحث عن وسيلة للقاء السلطان العثماني ، وكانت خطته مرتبطة باستغلال الظروف المالية البالغة الحرج للدولة العثمانية آنذاك ، وأعلن أنه سيقدم عرضاً لا يرفض ، وفي منتصف يونيو عام 1896 قدم هرتزل إلى إستانبول عن طريق وساطة فليب دولنسكي Philip De Lewinski ، وهو نبيل بولندي سابق ، وكان جاسوساً متنقلاً للسلطان العثماني في أوروبا ، عرض هرتزل على السلطان السماح لليهود باستيطان فلسطين مقابل عشرين مليون جنيه ، وأعلن دولنسكي وأتباعه أنه من دون مساعدة المنظمة الصهيونية لن يقف الاقتصاد العثماني على قدميه مرة أخرى ، وبعد مقابلة هرتزل للصدر الأعظم خليل رفعت باشا رفض الأخير بحث المشروع بالكلية ، كما رفض السلطان بدوره عرض هرتزل ونصح السلطان دولنسكي بـ لا يقدم هرتزل على اتخاذ خطوة أخرى في هذا الخصوص (85) ، على أن هرتزل لم ييأس وسافر مجدداً صحبة القيصر الألماني إلى إستانبول والقدس لكنه لم يفلح في لقاء السلطان العثماني (86) ، وسرعان ما وجد هرتزل ضالته في فامبيري صديق السلطان ومحل ثقته ، وليس معروفاً على وجه الدقة سبب اختياره لفامبيري على وجه الخصوص ، ويبدو أن ذلك ليس مرتبطاً بعلاقة فامبيري بالسلطان فحسب ، وإنما بالدرجة نفسها علاقته الطويلة والثيقة بالخارجية البريطانية (87) .

وقد التقى هرتزل فامبيري في 16 يونيو من عام 1900 بعد أربع سنوات من لقائه وليم هشلر William Hechler (1845-1931) ، وهو من أقطاب الحركة الصهيونية ، وكان على معرفة وثيقة بفامبيري ، كما كانت تجمعهما كراهية متبادلة أيضاً ، ولم يكن هشلر

الشديد التدين والمؤمن بحتمية توطين اليهود في فلسطين متحمساً لوساطة فامبيري المتجرد من أية روابط إيمانية، إلا أن البراعة السياسية لهرتزل نجحت في الجمع بين المتناقضين والاستفادة منهما⁽⁸⁸⁾.

وأوضح هرتزل أنه التقى "نوري بك" من الحاشية السلطانية على هامش مؤتمر السلام في يونيو من عام 1899، الذي نصحه بالحصول على "حلب" أولاً، وشراء الأراضي حول بيروت، وعندما تحين اللحظة المناسبة ويأتي الأسوأ للدولة العثمانية، يمكن عندها المطالبة بفلسطين، ولم ينل ذلك رضا هرتزل لكنه وجد فرصة سانحة عندما ألح له نوري بإمكانية شراء الرأي العام في تركيا، وأن أربعين ألف فرنك كافية لذلك الغرض⁽⁸⁹⁾.

واستطاع هرتزل إقناع فامبيري -على حد قوله- بأن "تكون مهمته الحقيقية في هذه اللحظات هي مساعدة شعبه"، وفي 8 مايو من عام 1901 وفي أثناء عودته من إستانبول، أعلن فامبيري موافقة السلطان على لقاء هرتزل كزعيم يهودي وصحفي بارز، وليس بوصفه ممثلاً عن المنظمة الصهيونية، وتم اللقاء في 17 مايو 1901 وحذره من إثارة الحديث مع السلطان عن الصهيونية، والتنبيه إلى أن القدس مدينة مقدسة شأنها شأن مكة⁽⁹⁰⁾.

كان هرتزل على علم برغبة السلطان العارمة في التخلص من إدارة القوى الكبرى لديون الدولة العثمانية، وأن يتمكن هو من إدارتها ليصبح سيد بيته، وأضاف هرتزل أن عرضه للسلطان سيكون بمثابة طوق النجاة له، وعرض أن يتولى المصرفيون اليهود سداد الدين الخارجي للدولة عوضاً عن القوى الكبرى التي تتربص بالدولة، وألح هرتزل إلى قدرة اليهود، حال السماح لهم بالهجرة، على الأخذ بيد الدولة العثمانية نحو سياسة التصنيع وتنشيط اقتصادها، وعلى الرغم من أنه، لم تذكر فلسطين في المباحثات فقد أكد السلطان تقديره وحمانيته وعطفه على اليهود، وقدر المبلغ المطلوب بنحو ثلاثين مليوناً، نظير أن يسمح بهجرة اليهود للدولة العثمانية وتتم معاملتهم كرعيا أتراك، كما أن المستوطنات اليهودية ستكون مقيدة؛ بحيث لا يزيد سكان كل مستوطنة عن خمس عائلات، وأنفق هرتزل أربعين ألف فرنك على حاشية السلطان، ومن ضمنهم فامبيري

للترويج لمشروعه⁽⁹¹⁾.

ودون الخوض في تفاصيل عديدة فقد فشل مشروع هرتزل بعد أن تخلى عنه رجال المال اليهود في إنجلترا وفرنسا وأصيب بخيبة أمل شديدة بحسب ما جاء في يومياته، ويجب التوضيح أن كلا الطرفين كان يمارس ضغوطه على الطرف الآخر للوصول إلى صفقة أفضل.

على أية حال، فقد نجح فامبيري في ترتيب لقاء السلطان بهرتزل وهو ما فشل فيه دوق بادن Duke of Baden والقيصر الألماني أيضاً، وقد ظهر جلياً أن هرتزل قد استطاع جذب انتباه فامبيري إليه جيداً، بفهمه العميق لنوازع الرجل خاصة الاعتداد بنفسه والمبالغة في تقدير ذاته، فأوضح له أنه سيكون بوسعه تضمين سيرته الذاتية في المستقبل بفصل رائع عن جهودة التاريخية لخدمة أبناء شعبه⁽⁹²⁾.

وفيما بعد أجرى مراسل النيويورك تايمز حواراً مع فامبيري في 25 أغسطس من عام 1907 حمل عنوان " فامبيري والصهيونية"، أبدى فيه بعض الملاحظات على الهجرة اليهودية إلى فلسطين، منها " تحفظه على مستقبل المستوطنات اليهودية، فقد يتسامح الأتراك، ولكن من ضمن مجريات الأمور فيما بعد؟ صحيح أن تركيا ستستفيد من جمع الضرائب من المستوطنات، ولكن من سيحمي تلك المستوطنات؟ وأعلن رفضه للهجرة اليهودية بأعداد كبيرة في الوقت الراهن؛ فهناك معارضة ويجب انتظار الوقت المناسب"، وهى النصائح نفسها التي وجهها نوري بك إلى هرتزل؟ وكان فامبيري على علم بها؛ ومن ثم لم يكن رافضاً للفكرة، بل كان داعياً إلى اختيار الوقت المناسب لها⁽⁹³⁾.

ويمكن القول في النهاية إن الهويات المتعددة التي تلبسها فامبيري طوال حياته، أخفت وراءها هوية واحدة لم تتغير وهي قناعته بالمركزية الأوروبية وثباته عليها، فظل مؤيداً حتى النهاية للسياسة البريطانية، وعلى الرغم من الجدل حول موقفه الديني، فقد ظلت لديه الجذور اليهودية الكامنة التي نجح هرتزل في استثمارها وتوظيفها لخدمة الصهيونية.

وماله دلالاته ما كتبه فامبيري في سيرته في ختام حديثه عن السلطان عبد الحميد قوله بنفحة رسولية واستعلائية " يظن السلطان أنه بثقته ومودته لي سيجعلني في النهاية

رجله المخلص الوفي ، وأتبنى وجهة نظر السياسة التركية وحدها ، وأقف ضد العالم المسيحي ، معلماً من شأن الشرق النبيل ورافضاً لأوروبا والغرب البغيض - كلا لقد كنت وسأظل دوماً أكثر التصاقاً بالثقافة الغربية وموقناً بفائدتها على الدوام " (94) ، وهكذا كانت حياة فامبيري تجسداً للتداخل الشديد بين عالم الاستشراق وسحره الغامض وأفق السياسة على أرض الواقع .

خاتمة

حظي المستشرق أرمنيوس فامبيري بالاهتمام من قبل معاصريه بحكم قدراته في إتقان العديد من اللغات ، وعززت رحلته إلى آسيا الوسطى من مكانته في عالم الاستشراق ، وتمس فامبيري في شبابه لثورة المجر في عام 1848 ، إلا أن التدخل الروسي السريع حال دون نجاح الثورة ، وترك ذلك أثراً باقياً لديه فظل ناقماً على السياسة الروسية طوال حياته .

وخلال إقامته الطويلة في إستانبول عرف فامبيري باسم رشيد أفندي ، ونجح في تكوين شبكة علاقات اجتماعية مع الصفوة التركية ووطد علاقته مع السلطان عبد الحميد الثاني قبل توليه السلطة وبعدها ، وبالغ فامبيري على الدوام في تقدير ذاته ، ورأى أن قدراته وعلاقاته المتعددة تتجاوز الدبلوماسية التقليدية ، وأنه قادر على إيجاد التوفيق باستمرار بين مصالح الدولة العثمانية وبريطانيا ، ومنذ العقد الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، قام فامبيري بمهام لصالح السلطان عبد الحميد تارة ، ولصالح بريطانيا تارة أخرى ، إلا أنه - كما أوضح في مذكراته - ظل وفياً على نحو دائم للمصالح البريطانية في المقام الأول .

ومن جهة أخرى لم يغيب عن فامبيري الذي تحدث بمرارة عن ثورة عام 1848 أن فكرة دمج اليهود بالمجتمعات الأوروبية تجابه تحديات كبيرة ، ولعل ذلك هو ما دفع فامبيري للاستجابة لطلب ثيودور هرتزل ومساعدته بعد أن ضاقت به السبل في ترتيب لقاء بالسلطان العثماني لبحث الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، ولم يكن فامبيري رافضاً لدعاوى الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين ، بقدر ما دعا إلى تنفيذ ذلك في الوقت

المناسب ، وإذا كان الجانب السياسي في حياة فامبيري قد أميط عنه اللثام ، فإن آراءه عن سياسة التنظيمات وعن مجمل الأوضاع السياسية والاجتماعية خلال فترات وجوده باستانبول جديرة بالبحث والدراسة .

الهوامش والمراجع

- (1) Mandler,David. **Arminius Vambery ,The eastern Brother in Victorian Politics and Culture** :Hungarian (Jewish) Orientalism and The Invention of Identities, New York University, 2005. Pp.10-12.
 - (2) Vambery, Arminius. **The Story of My Struggles The Memoirs of Arminius Vambery**,Vol,II, New York,1904.p,310.
 - (3) Mandler,David. Vambery, **Victorian Culture, and Stoker's Dracula** in Steven Totosy De Zepetnek, Comparative Hungarian Cultural Studies: Purdue University Press, 2011,Pp,47-48.
 - (4) Vambery, Arminius. **The life and Adventures of Arminius Vambery, Written By Himself**, New York. Pp.3-4.and also, The Story of My Struggles , p,319.
 - (5) Patai ,Raphael.**The Jews of Hungary History Culture Psychology**, Wayne State University Press, 1996.p.394.
 - (6) The life and Adventures, pp, 1-2.
 - (7) Vambery, Victorian Culture,p,49.
 - (8) جرى التكريس باستمرار لرؤية الشرق بوصفه موضعاً يتعذر سبر غوره، موضعاً للغرابة ومثاراً للدهشة، راجع: ساردار، ضياء الدين، الاستشراق، صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية، ترجمة: فخري صالح، مراجعة: أحمد خريس، الطبعة الأولى، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، 2012، ص 23 .
 - (8) جرانت أ.ج، تمبرلي جرانت: أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين (1789-1950)، ترجمة: بهاء فهمي، مراجعة: أحمد عزت عبد الكريم، مؤسسة سجل العرب، د.ت، ص 366 - 372 .
 - (9) Sarkozy, Miklos. **At The Crossroads of Identity :Arminius Vambery- Oriental Traveler and Scholar**, Journal of Intercultural Inquiry ,Vol, 1,N.1 Autumn,2015 .p.70.
- ومن المواقف الحرجة التي تعرض لها فامبيري في طفولته سخرية أحد الأساتذة منه عندما أخبره بأنه يجدر به ترك الدراسة والعمل " كوشير " Kosher ؛ أي تقديم الطعام اليهودي المطابق للشريعة، انظر: Goldman, Shalom. **Zeal for Zion, Christians Jews,The Idea Promised Land**, The University

- of North Carolina Press, 2009,p,120.
- The life and Adventures,Pp.8-9. (10)
- The life and Adventures,p, 11. (11)
- Arminius Vambery ,The Eastern Brother, p.26 . (12)
- Rethelyi, Maria .**German Jews as Hungarian Nationalists and The Emergence of Oriental Studies** ,Chicago University,2009,pp.101-102. (13)
- German Jews as Hungarian Nationalists ، Pp ، 224–225 . (14)
- At The Crossroads of Identity,p,78. (15)
- German Jews as Hungarian Nationalists,Pp,233-235 . (16)
- وقد شبه جولد تسهير (1850 - 1921) تلميذ فامبيري المعروف في الدراسات الإسلامية جهود أستاذه في البحث عن الأصول العرقية للمجر في حقل الدراسات التركية بجهود كولبس الكشفية الجغرافية في العالم الجديد، راجع :
- German Jews as Hungarian Nationalists,p,237
- The life and Adventures,p.8. (17)
- ومما له دلالة تعبيره عن نفسه بأنه يود أن يصنع شيئاً غير مألوف، شيئاً ما يجعلني شهيراً، راجع :
- The Story of My Struggles , p,319.
- Hamilton. Keith, **Services Rendered Arminius Vambery and British Diplomacy**, in , John Fisher, Antony Best, **On The Fringes of Diplomacy: Influences on British Foreign Policy ,1800-1945**.Ashgate.2011.p.81.
- Services Rendered Arminius Vambery,Pp,256-257. (18)
- At The Crossroads of Identity,pp,74-75. (19)
- The Story of My Struggles , p,347. (20)
- Arminius Vambery, The Eastern Brother,pp,22-23. (21)
- Arminius Vambery, The Eastern Brother,p,31. (22)
- تعرف فامبيري السلطان عبد الحميد ووثق صلته به قبل توليه السلطة؛ إذ كان معلماً للفرنسية للأميرة فاطمة أخت السلطان عبد الحميد منذ عام 1858، راجع :
- The Story of My Struggles, p,346.
- At The Crossroads of Identity,p,71. (23)

- The life and Adventures, pp, 24-26, The Story of My Struggles, pp, 351-352, (24)
- Arminius Vambery, The Eastern Brother, pp, 33-34. (25)
- وقد وصف فامبيري النساء بتركيا بأنهن أكثر محافظة من الناحية الدينية، وأكثر " تعصباً " من الرجال وهن غير مؤيدات للإصلاحات ذات الطابع الغربي، وضد كل ما هو مسيحي، The life and Adventures, pp, 27-28.
- Arminius Vambery, The Eastern Brother, p, 92 (26)
- Arminius Vambery, The Eastern Brother, pp, 42-43. (27)
- Arminius Vambery, The Eastern Brother, pp, 61-62. (28)
- راجع على سبيل المثال: بالجريف، ولیم جيفورد: وسط الجزيرة العربية وشرقها (1862-1863)، ترجمة: صبري محمد حسن، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، 2001، ص، 210، وتذكر في هذا السياق مقولة اللورد كرومر الشائعة: إن الإسلام إن لم يكن ميتاً، فهو في طور الاحتضار.
- Arminius Vambery, The Eastern brother, p, 34. (30)
- حوراني، ألبرت: الإسلام في الفكر الأوربي، الأهلية للنشر والتوزيع، 1994، ص 10-11، وص 16-17، الطيباوي، عبد اللطيف: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، دراسة نقدية، ترجمة وتقديم: قاسم السامرائي، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1991، ص 18.
- At The Crossroads of Identity, p, 71. (31)
- Bowman, Linda. Travelers' Tales: Great game Narratives. 2011, pp. 5-6. (32)
- حظيت أدبيات الرحلة منذ وقت مبكر باحتفاء الرأي العام لها ولقيت رواجاً كبيراً؛ فعندما عاد اللفتانت ألكسندر برنس من شركة الهند الشرقية في أواخر عام 1833 استقبل بحفاوة بالغة وذاع كتابه رحلات إلى بخاري بين مختلف الأوساط الاجتماعية، p, 3، Travelers' Tales: Great game Narratives.
- R. Dalby, L. Alder. The Dervish of Windsor castle: The Life of Arminius Vambery, London (33)
- , pp, 64-65.
- الجيوبوليتيكة هي علم سياسة الأرض؛ أي العلاقة بين السياسة والرقعة الأرضية، ويعد فريدرك راتزل (1844-1904) أحد رواد هذا العلم، وأرسى كتابه عن الجغرافيا السياسية الصادر في عام 1897 قواعد هذا العلم، راجع، دوفاي، ألكسندر: الجغرافيا السياسية، تعريب: حسين حيدر، الطبعة الأولى، عويدات للنشر، بيروت، 2007، ص 22.
- Arminius Vambery, The Eastern Brother, p, 42 (35)
- Perkin, John Conway. The End of Great Game, Anglo-Russian Relations Concerning Central Asia (1899 -1907), Acadia University, 1985, pp, 33-34. (36)

- The Jews of Hungary,p,394. (37)
- At The Crossroads of Identity,p,82. (38)
- The Dervish of Windsor castle,p,214. (39)
- طبع فامبيري كتاب رحلته أكثر من ست طبعات في بريطانيا وحدها إلى عام 1890 .
- The life and Adventures,p,52. (40)
- The Story of My Struggles.pp,65-66. (41)
- The Story of My Struggles,p,261. (42)
- The Story of My Struggles,pp,75-76. (43)
- The Story of My Struggles,pp,285-286. (44)
- Zeal for Zion, Christians Jews,p,118. (45)
- At The Crossroads of Identity,p,82. (46)
- Yetisgin Memet, **How The Times of London Covered and Interpreted Russian Expansion Into Central Asia in Second Half of Nineteenth Century**, Texas Tech University,2000,pp,170-171. (47)
- في مقالة له بالتاييز بتاريخ 11 نوفمبر 1868 طالب فامبيري الحكومة البريطانية بتوطيد العلاقات السياسية والاقتصادية مع يعقوب بك حاكم كاشغر ذي الأغلبية من الأويغور الأتراك ، ويمكن من خلاله السيطرة على خانات آسيا الوسطى ، مثل خونقند لتحجيم النفوذ الروسي ، وبالفعل أرسلت الحكومة البريطانية سفراء للهند للقاء رسل يعقوب بك إلا أن تلك المحاولة فشلت بوقوع كاشغر في قبضة الحكومة الصينية ، راجع :
- How The Times of London Covered and Interpreted Russian Expansion,pp,185-186.
- The Story of My Struggles.pp,287-288. (49)
- Vambery to Rawlinson, Letter,6 , May, 1873, FO,1093,/46,TNA. (50)
- At The Crossroads of Identity,p,83. (51)
- Zeal for Zion, Christians Jews,p,119. (52)
- Vambery, Victorian Culture,p,48. (53)
- Services Rendered Arminius Vambery,p,124. (54)
- Vambery to Currie, Letter.6.Jun.1889. (55)
- في السيرة الذاتية أفاض فامبيري بالحديث بإعجاب عن شخصية السلطان عبد الحميد وحصافته السياسية ، معتبراً أن أبرز عيوبه هي الخوف والشك ونزعته الاستبدادية ، راجع :

- The Story of My Struggles, pp, 352-353. (56)
- The Story of My Struggles, pp, 362-363 (57)
- Zeal for Zion, Christians Jews, p, 124. (58)
- Ibid, p, 358. Zeal for Zion, Christians Jews, p, 358. (59)
- Ibid, p, 353. Zeal for Zion, Christians Jews, p, 353. (60)
- Zeal for Zion, Christians Jews, p, 124. (61)
- The Story of My Struggles, p, 255. (62)
- Vambéry to Currie, Letter, 4, Jun, 1889. (63)
- The Story of My Struggles, p, 356. (64)
- Vambéry to Currie, Letter, 4, Jun, 1889. (65)
- اعتبر السلطان عبد الحميد أن فقدان مصر خسارة عظيمة؛ فأرض النيل هي درة التاج العثماني، راجع :
The Story of My Struggles, p, 346. (66)
- Vambéry to Currie, Letter, 6, Jun, 1889. (67)
- Services Rendered Arminius Vambéry, p, 88. (68)
- Foreign Commonwealth, **The Records of The Permanent Under Secretary's Department, Liaison Between The Foreign Office and British Secret Intelligence (1873-1939)**, 2005, p, 21. (69)
- The Dervish of Windsor castle, pp, 393-395. (70)
- Vambéry to Currie, Letter, 4, Jun, 1889. (71)
- عمر، يوسف حسين يوسف: موقف بريطانيا من سكة حديد بغداد 1898-1914، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 6، العدد 4، 2012، ص 182 - 184. (72)
- The Story of My Struggles, pp, 380-381. (73)
- The Story of My Struggles, pp, 367-368, and also, Jeremy Salt, **Imperialism, Evangelism, and The Ottoman Armenians, 1878-1896**, London, 1993, pp, 153-155. (74)
- Currie to Vambéry, Letter, 25, Jun, 1889. (75)
- Mim, Kemal, Oke, **Professor Arminius Vambéry and Anglo-Ottoman Relation, (1887-1907)**, Turkish Studies Association Bulletin, Vol, 9, No, 2, 1985, pp, 15-16. (76)

- Zeal for Zion, Christians Jews,p,124. (75)
- Services Rendered Arminius Vambery,p,88. (76)
- أشار البعض إلى أن إيمان فامبيري برسالة الغرب الحضارية والدفاع عن التدخل البريطاني بالهند، يشبه إلى حد كبير ما قام به لاحقاً المحافظون الجدد في إدارة جورج بوش الابن، التي رفعت شعار جلب الحرية والديمقراطية في تدخلها العسكري في أفغانستان، والعراق، انظر: (77)
- Arminius Vambery ,The Eastern Brother,p,93. (78)
- Arminius Vambery ,The Eastern Brother,p,90. (79)
- The Story of My Struggles,pp,368-369. (80)
- The Story of My Struggles,pp,386. (81)
- Foreign Commonwealth,p,13. (82)
- Services Rendered Arminius Vambery,p,88, (83)
- (81) Bitton ,Livia ,Elvira, Adecade of Zionism In Hungary, The Formative Years- The Post World War I,Period,1918-1928,New York University,1968,pp,134-135.
- الواقع أن فكرة توطين اليهود في فلسطين كانت متداولة منذ وقت مبكر؛ فقد نشر المستشار القانوني للملك بريطانيا عام 1621 أول مشروع دولي لإقامة إمبراطورية للأمة اليهودية بعنوان الاستعادة العظمى، وحث الأمراء المسيحيين على استعادة تلك الإمبراطورية التي تمهد لعودة المسيح المخلص، وفي القرن الثامن عشر كانت ورقة نابليون، (1801-1885) اليهودية، وكان اللورد شافستيري من أبرز الساسة البريطانيين المؤيدين لهذه الدعوة، وتقدم إلى مؤتمر لندن في عام 1840 بطلب لتوطين اليهود بفلسطين وصك آنذاك الشعار المعروف "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، راجع: الحسن، يوسف: الانحياز، دراسة في تأثير الأصولية المسيحية في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، 2003، ص 22-23، والسماك، محمد: الصهيونية المسيحية، الطبعة الرابعة، دار النفائس، بيروت، 2004، ص 37، ص 57.
- (82) Mim Kemal Oke, **The Ottoman Empire, Zionism and The Question of Palestine (1880-1908)**, International Journal of Middle East Studies, Vol, 14, N.3, Aug, 1982, p, 329. (84)
- (83) The Ottoman Empire, pp, 329-330. (85)
- (84) Zeal for Zion, Christians Jews, p, 124. (86)
- Isaiah, Friedman, **Germany, Turkey, Zionism (1897-1918)**, pp, 95-96. (87)
- Zeal for Zion, Christians Jews, p, 125. (88)
- Germany, Turkey, Zionism, p, 96.** (89)

Germany, Turkey, Zionism,p,97. (90)

Walter Laqueur, **A History of Zionism: From The French Revolution to The establishment of The State of Israel**, New york,2003,pp,115-116. (91)

وحول المزيد عن الميثاق الذي وضعه هرتزل لتنظيم الاستيطان اليهودي في المستقبل، راجع: خالدي، وليد: الشركة اليهودية - العثمانية للأراضي، مخطط هرسل لاستعمار فلسطين، مجلة الدراسات الفلسطينية، خريف 2013 .

Zeal for Zion, Christians Jews,p,125. (92)

The New York Times, Prof, Vambery on Zionism, 25 Aug,1907. (93)

The Story of My Struggles,p,370. (94)

المراجعة بالحروف اللاتينية

References in Roman Script

- (1) Āl -Dīn ,sardār al-istishraq şurat al-shraq fi al-Ādāb wa-al-ma'ārif al-Gharbīyah tarjamah fukhrīy sālih Abū Ḥabīb,2012.
- (2) Āl -Iskandar dāf'ah , al-jughrāfiyā al-siyāsīyah.ta'rīb husayn haydar al-Ṭab'ah 1. Bayrūt,2007.
- (3) Grant and Temperley tārikh Ūrub'a fī al-qarnayn al-tāsi' 'ashar waal-'ishrīn, 1789-1950, /; tarjamah , biha'a fuhumay , al-Qāhirah.1961.
- (4) Ḥūrānī. Āl -br'īt. Al- Islām fī al- fikr al-Ūrubī, Amman,1994.
- (5) Palgrave William Gifford, wsāat Jazīrah al-'Arabīyah wa-sharqaha (1862-1863) , tarjamah , subray muhamad hasan, al-Ṭab'ah 1 al-Qāhirah, 2001.
- (6) Tibawi, 'Abd al-Laṭīf. -Mustashriqūn al-nāṭiqūn bi-al-injlīzīyah : dirāsah naqdīyah /; tarjamah wa-taqdīm Qāsim al-Sāmarrā'ī. Saudi Arabia : Jāmi'at Muḥammad ibn Sa'ūd, 1991.
- (7) Yūsuf husayn Yūsuf, Mawqif Barīṭāniyā min Sikkat ḥadīd Baghdād,18981914-, al-Majallah al-tārikhīyah al-Ūrdunīyah,2012.

مجلة العلوم الاجتماعية

تأسست عام ١٩٧٣م، فصلية، محكمة، تصدر عن مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت
تعنى بنشر الأبحاث والدراسات في تخصصات السياسة والاجتماع والخدمة الاجتماعية
وعلم النفس والأنثروبولوجيا والجغرافيا وعلوم المكتبات والمعلومات والأعلام



رئيس التحرير:
د. مها مشاري السجاري

تفتح أبوابها أمام

أوسع مشاركة للباحثين العرب في مجال العلوم الاجتماعية
نشر البحوث الأصلية والاسهام في معالجة قضايا مجتمعهم

ترحب بالدراسات المقارنة وتشجع على التكامل بين مختلف
تخصصات العلوم الاجتماعية

عرض مراجعات الكتب والتقارير وملخصات رسائل ماجستير
والدكتوراه

تتوفر نصوص البحوث كاملة لدى

EBSCO PUBLISHING

و دار المنظومة www.mandumah.com

توجه جميع المراسلات إلى:

رئيس تحرير مجلة العلوم الاجتماعية
جامعة الكويت

ص. ب: 27780 الصفاة، 13055 الكويت

تلفون: 00965 24810436

فاكس: 24836026

jss@ku.edu.kw

E-mail jsskuwait@gmail.com

الاشتراكات

الدول الأجنبية		الكويت والدول العربية	
أفراد	١٥ دولاراً	أفراد	٣ دنانير سنوياً في الكويت ٤ دنانير في الدول العربية
مؤسسات	٦٠ دولاراً في السنة ١١٠ دولارات لسنتين	مؤسسات	١٥ ديناراً في السنة ٢٥ ديناراً لمدة سنتين

تدفع اشتراكات الأفراد مقدماً نقداً أو بشيك باسم جامعة الكويت أو بتحويل مصرفي لحساب
جامعة الكويت رقم ٠٤٢١٠٢٦٠٨ لدى البنك المركزي في الكويت.

IBN / KW 21CBKU 000000000000004202608

Visit our Website: apc.kuniv.edu.kw/jss

حساب المجلة بالتويتر: @jsskuwait1

حساب المجلة بالاسفغرام: @jsskuwait